

آراء في إمكانية أسلمة الجامعة

وضرورة ذلك

د. مصطفى ملكيان*

توجد حقيقتان اثنتان يبدو أنه لا شك فيهما:

أولاهما: إن جامعات العالم، في العصر الراهن، كلها تقريباً
عصرية وعلمانية ومتحررة.

الثانية: إن هذه الجامعات بأسرها تعاني من عيوب ونواقص
وغير خالية من الخلل.

وبطبيعة الحال، تختلف آراء المختصين في التربية والتعليم،
حول هذه العيوب والنواقص. إلا أنه يمكن القول: إن العلماء
ينقسمون إلى فريقين كبيرين في مقام تحديد تلك العيوب وتقديم
حلول لها؛ حيث يحاول بعضهم حل مشاكل الجامعة مع المحافظة
على روح الحداثة والتحرر فيها. بينما يرى آخرون أن هذه
المعضلات تعود في جذورها إلى روح الحداثة والعلمانية الموجودة
في الجامعة. وبالتالي، فإن من المستحيل الإبقاء على هذه الروح
والوصول إلى حل يستأصل مشكلات الجامعة ويقوم أعوجاجها.
وبناء عليه، فلا بد من تأسيس جامعة تنبض بروح جديدة هي روح
التدين والأيدولوجيا^(١).

وهذا الانقسام بعينه موجود بين علماء المسلمين وفقهائهم،
فمنهم من ينتمي إلى التيار الأول وهم الحداثيون، بينما يقف
التقليديون في صف أنصار الرأي الثاني القائل بعدم إمكان حل

* باحث في الفكر
الإسلامي من إيران.

مشكلات الجامعات إلا من خلال تغيير الروح الحاكمة عليها. ورغم الاختلاف العميق بين النظرتين إلا أن الرأي متفق على ضرورة تأسيس جامعة إسلامية تحمل هوية دينية وعقائدية وقد بدا ذلك واضحاً في الملتقى العالمي الأول حول التعليم والتربية الإسلامية الذي انعقد في مكة المكرمة سنة ١٩٧٧، ولأجل تحقيق هذا الهدف تم القيام بعدد من الأنشطة الفكرية والعملية^(٢).

وفي هذا البحث سوف نقصر على ذكر مجموعة من الآراء المتعلقة بإمكانية أسلمة الجامعة وضرورة ذلك. ونحن نعتقد جازمين أن رفع الشعارات وحده لا يجعل جامعاتنا وتربيتنا وتعليمنا إسلامياً، ولا العمل بدون خطة واضحة مع التهرب من تحمل المسؤوليات يحقق شيئاً. ولذلك نسأل أولاً: ما هو المراد من مفهوم الجامعة الإسلامية؟ وما الذي يميزها عن غيرها من حيث الماهية والمضمون؟ وثانياً: هل أن أسلمة الجامعة أمر ممكن؟ وثالثاً: إذا كان هذا الهدف يقبل التحقق فهل هو ضروري؟

الجامعة الإسلامية الحقيقية والمضمون:

يمكن القول: إن أهم المقومات الأساسية لجامعة ما هي عبارة عن:

أ- الهدف المتوخى من تأسيس الجامعة.

ب- العلوم التي تدرس في الجامعة.

ج- المنهج الدراسي.

د- الأساتذة.

هـ- الطلاب.

و- نظام الإدارة والتنفيذ.

وعلى هذا الأساس ربما يمكن تحديد المقصود من مفهوم الجامعة الإسلامية بذكر الفروق بينها وبين الجامعة غير الإسلامية من جميع هذه الجوانب أو بعضها على الأقل. كما أن المفكرين الذين انهمكوا بالبحث حول أسلمة الجامعة حددوا بدورهم المقصود بالجامعة الإسلامية بالأسلوب نفسه، رغم أنهم ركزوا بشكل أكبر على العنصرين الأول والثاني من بين العناصر الستة المشار إليها أعلاه.

وبشأن الهدف المتوخى من تأسيس الجامعة الإسلامية، فقد ورد في توصيات الملتقى

العالمي الأول حول التربية والتعليم الإسلاميين: «إن هدف التربية والتعليم الإسلاميين هو تربية الإنسان الصالح الذي يعبد الله بكل معنى الكلمة، وقيم حياته الدنيا على أساس الشريعة، ويسخر هذه الحياة لخدمة دينه... وينبغي أن يكون الهدف من التعليم والتربية، هو النمو المتوازن لشخصية الإنسان بجميع أبعادها عن طريق تربية الروح والعقل والفكر والمشاعر، والعواطف. وعلى هذا ينبغي بالتعليم والتربية أن يوفرا المستلزمات الضرورية لنمو الإنسان في شتى أبعاد شخصيته؛ الروحية منها، والمعنوية، والعقلية، والخيالية، والجسمية، والعلمية، والتجريبية، واللسانية، على مستوى الفرد والجماعة، ويستخدمها جميع هذه الأبعاد في سبيل الصلاح ومن أجل بلوغ درجة الكمال. والهدف الأسمى للتربية والتعليم الإسلاميين هو أن يتحقق التسليم التام لأمر الله على المستويين الفردي والاجتماعي وبشكل عام على مستوى الإنسانية جمعاء»^(٣). والهدف الذي حُدد آنفاً يشبه كثيراً الأهداف التي عرضها كافة الأفراد والجماعات الناشطين في مجال إنشاء الجامعة الإسلامية، وهو مصاب - شأنه شأن تلك - بنقصين أساسيين:

الأول: إنه طُرِح في إطار ألفاظ وعبارات تفتقر إلى الوضوح على جميع الأصعدة. وأية محاولة لتوضيح هذا الهدف، سوف تؤدي إلى خرق الإجماع لعدم الاتفاق بالضرورة على هذا التوضيح. وإن عبارات مثل «الإنسان الصالح والمستقيم» و«عبادة الله» و«تسخير الحياة الدنيوية والمادية لخدمة الدين» و«النمو المتوازن لشخصية الإنسان بجميع أبعادها» و«الروح» و«العقل» وما شابه من العبارات الواردة في تحديد الهدف المنشود من الجامعة الإسلامية، تحتاج إلى تحديد معانيها وتوضيحها ولكن المشكلة هي عدم الاتفاق على مدلول موحد كما أشرنا سابقاً.

الثاني: إذا كان هذا هو الهدف من تأسيس الجامعة الإسلامية، حق لنا أن نسأل بماذا تختلف الجامعة الإسلامية عن الجامعة المسيحية أو اليهودية مثلاً؟ والمقصود أن الجمل والعبارات التي وردت هنا لا يبدو فيها ما يشير إلى أمر خاص بالإسلام، ويكفي أن نضع تعبيرات مسيحية مثل: «أبونا الذي في السماء»، أو يهودية مثل: «يهوه» بدلاً من «الله» لتكون قد حددنا هدف الجامعة المسيحية أو اليهودية.

أسلمة العلوم في الجامعة الإسلامية:

وبشأن العلوم التي تدرّس في الجامعة الإسلامية ينبغي الالتفات إلى أن ما يقصده

الداعون إلى أسلمة الجامعة ليس هو أن تُدرّس العلوم والموضوعات والقضايا الإسلامية أيضاً إلى جانب بقية العلوم والموضوعات والقضايا فحسب؛ ذلك أنه يمكن تحقيق هذا الهدف بإدخال العلوم والموضوعات والقضايا الدينية في هذه الجامعة الموجودة. كما يجري عادة في بعض البلدان الإسلامية ومنها إيران، إلزام جميع الطلاب في كل فروع الجامعات بعدة دروس ذات علاقة بالعلوم والموضوعات والقضايا الإسلامية. وليس المقصود هو توفير تسهيلات لطلاب العلوم الإسلامية في مجال البحوث والدراسات العليا؛ وذلك لأنه يمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق إنشاء «مؤسسة دراسات إسلامية» أو افتتاح كلية للشريعة في كل واحدة من الجامعات القائمة. وهنا يأتي الحديث عن أسلمة العلوم والمعارف. فإذا أخذنا العلم بمعناه العام؛ أي المعرفة المجردة، أمكن القول: إن العلوم التي تقع في متناول الإنسان تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين: المجموعة الأولى: العلوم التي كشفها الله للإنسان عن طريق الوحي وبواسطة أشخاص اختارهم لهذه المهمة، وقد بقي شكلها المدوّن في إطار نصوص دينية مقدسة.

والمجموعة الثانية: هي العلوم التي توصل إليها الإنسان عن طريق استخدامه لطاقاته الفكرية.

وإذا كان الكلام في أجواء الثقافة الإسلامية، يمكن القول: إن علوم المجموعة الأولى توفرت في القرآن والأحاديث الصحيحة.

بينما إذا أخذنا العلم بمعنى أخص، أي بمعنى الفرع العلمي، وقصرنا كلامنا على نطاق الثقافة الإسلامية، أمكننا القول إنه يمكن تقسيم العلوم إلى مجموعتين: إسلامية وغير إسلامية. فالإسلامية هي العلوم التي وظيفتها فهم وتبيان الكتاب والسنة والدفاع عنهما، أو التي يتمسك فيها بالكتاب والسنة من أجل إثبات رأي، أو نفيه، أو دحضه، أو قبوله أو نقضه أو إبرامه. بمعنى أن تفسير القرآن وشرح الحديث وسيرة النبي (ص)، وعلم الكلام الإسلامي، وعلم الأخلاق الإسلامي، والفقه، وقسماً من أصول الفقه، هي في عداد العلوم الإسلامية^(٤). أما العلوم التي تفتقر إلى أي من هذين الوصفين المذكورين، فهي علوم غير إسلامية. بمعنى أن علوم المنطق والرياضيات والعلوم التجريبية الطبيعية (ومنها الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء) والعلوم التجريبية الإنسانية (ومنها علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد) والعلوم التاريخية (ومنها التاريخ واللغة)، هي علوم غير إسلامية.

ولا شك في أنه عندما يجري الحديث عن أسلمة العلوم، فليس المقصود بذلك أسلمة

العلوم الإسلامية؛ لأن ذلك تحصيل للحاصل كما يقال . وعلى هذا فالذين يسعون إلى أسلمة العلوم وصولاً إلى أسلمة الجامعات، إنما يسعون في الحقيقة إلى أسلمة العلوم غير الإسلامية التي أشير إلى بعضها وأسلوب البحث في كل واحد منها، سواء أكانت عقلية بـ «المعنى الأخص»^(٥) أو تاريخية، أو تجريبية . وهنا يطرح هذان السؤالان نفسيهما على بساط البحث: ما المقصود بأسلمة العلوم؟ وهل أسلمة العلوم أمر ممكن؟

وفي الجواب نقول: ربما كان المقصود بأسلمة العلوم، هو: أن نعرض على القرآن والروايات ما قيل في كل واحد من العلوم العقلية والتجريبية والتاريخية، فنقبل من بينها كل ما يتطابق مع آيات القرآن والروايات الموثوق بها، ثم نطرح البقية جانباً أو نطرح جانباً كل ما كذب القرآن والروايات الصحيحة ونقبل الباقي . وفي كل الأحوال نعتبر مجموع ما نتقبله علماً إسلامياً . فإن كان الأمر كذلك ينبغي القول:

أولاً: كيف نثبت أن أولئك الذين صدر عنهم القرآن والروايات الصحيحة كانوا بصدد تبيان الحقائق العقلية والتجريبية والتاريخية التي ترد في العلوم، أو أنهم بينوا هذه الحقائق؟

ثانياً: إن ما يجب القبول به أو رفضه مما ذكر إنما يتم قبوله أو رفضه فقط في ضوء أن القرآن والروايات الصحيحة كذبت أو قبلت به، أو أن تبرر - فضلاً عن ذلك عمك على أساس الأساليب الاستدلالية لذلك العلم ومعاييره في الرفض والقبول، ففي الحالة الأولى تكون قد خرجت عن إطار البحث ولن تكون لكلامك قيمة لدى أي من علماء ذلك العلم، وفي الحالة الثانية فإن رجوعك إلى القرآن والروايات الصحيحة أمر لا طائل من ورائه .

ثالثاً: ما الرأي الذي تأتي به ليحل محل ما تدحضه، ومن أين تأتي به؟ فالعلم لا يستطيع الاستمرار من غير آراء ونظريات، ولهذا السبب أيضاً كثيراً ما تبقى نظرية ما في نطاق علم ما، رغم عدم تمتعها بأدلة كافية، بل حتى لو اكتشف ما ينقضها في بعض الأحيان إلى حين العثور على بديل لها^(٦) .

رابعاً: إن ذلك سيضع عمك السلبي هذا في وضع انفعالي محض وبمعنى آخر، فإنك بهذا لا تستطيع أن تكون سبباً في تقدم العلوم، بل يمكن فحسب الحيلولة دون انحراف العلوم .

وربما كان المقصود بأسلمة العلوم هو أن نقوم - برجوعنا إلى القرآن والروايات

الصحيحة - بعمل إيجابي؛ أي أن نقدم كل علم من العلوم من جديد. فبدلاً من أن ننهمك بتصحيح العلوم الموجودة والاقتباس منها على أساس الكتاب والسنة، نبادر إلى تقديم مشروع على هذا الأساس نفسه ووضع أسس لعلوم جديدة. وليست قليلة في الكتاب والسنة المواد الخام اللازمة لإيجاد علوم جديدة. ألم يدون الشيخ الأنصاري مثلاً - مستفيداً فحسب من بضع آيات وأحاديث - جميع المواضيع المتعلقة بالبيع وخيارات البيع، ويحلّ العضلات ذات العلاقة بهذا البحث، ويؤلف كتاباً ضخماً؛ إن ما ينقصنا هو عزيمة مثل عزيمة الشيخ الأنصاري لنستخرج من ثنايا الكتاب والسنة علم اقتصاد إسلامياً وعلم اجتماع إسلامياً، بل وحتى علم أحياء وكيمياء وفيزياء ورياضيات ومنطق و... إسلامياً.

ومرة أخرى إذا كان هذا هو المقصود بأسلمة العلوم، فيجدر القول أيضاً:

أولاً: ما هو الدليل على أن ما كان يهدف إليه القرآن والسنة هو تبيان الحقائق العقلية والتجريبية والتاريخية؟ حيث يبدو أنه لا دليل على هذا الادعاء، بل يمكن إقامة الدليل على خلاف ذلك، والقول: إن الرجوع إلى الكتاب والسنة لا يؤيد وجود حقائق كهذه بالقدر الكافي لتأسيس مئات الفروع العلمية. وواضح - دون الحاجة إلى مزيد شرح - أن ما يدعيه بعضهم من أنه لما كان الكتاب والسنة يؤكدان أهمية التعليم والتفكير، فإن كل ما نتج عن هذا الطريق هو علم إسلامي، ادعاء لا يعبأ به ومرفوض؛ ذلك أن هذا الادعاء يزيل الفوارق القائمة بين العلوم الإسلامية وغير الإسلامية؛ لأن جميع العلوم نتجت عن استخدام قوى الإدراك التي وهبها الله للإنسان. كما أن الاستشهاد بعمل الشيخ الأنصاري لا يحل شيئاً من العضلة، ذلك أنه بغض النظر عن وجود مجال للنقاش في منهجيته أيضاً^(٧)، لا يمكنك مقارنة عمله؛ حيث إنه يوجد مجال لاحتمال أن تكون جميع أحكام البيع وخياراته، بل وجميع الأحكام الفقهية قابلة للاستخراج من نصوص الكتاب والسنة، بينما لا يمكن استخراج حتى قانون رياضي أو اقتصادي واحد منهما، خاصة مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الأحكام الفقهية تندرج ضمن العلوم القيمية المعيارية، بينما تنتمي الأحكام التي تحاول استخراجها إلى العلوم الوصفية.

ثانياً: كيف تضع في يد من يقف إلى جانبك في العلوم التي تستخرجها بالطريقة التي ذكرت آنفاً، أدلة يعزز بها موقفه؟ ذلك أنه إذا كانت أدلة النتائج العلمية تعتمد فحسب على التمسك بالكتاب والسنة، فستتحول جميع العلوم إلى علوم نقلية، ولن تستطيع عندها إحلال علومك المستخرجة على يدك محلّ العلوم العقلية والتجريبية والتاريخية المتوفرة؛ إذ

إن هذه العلوم المتوفرة لها أساليب بحث وأحكام عامة مجردة عن الدين والعقيدة، ولهذا فهي تستطيع أن تطالب أياً كان بالرضوخ لها والقبول بها، بينما تستند العلوم التي ينتجها صاحب نظرية الأسلمة بهذا المعنى إلى الدين والعقيدة، وللسبب نفسه يتقبل معطيات هذه العلوم الموافقون لصاحبها في دينه وعقيدته فحسب.

وإذا اعتمد الاستدلال على مناهج البحث العلمي وعلى أحكام العقل والتجربة، ففي هذه الحالة تكون قد تمت الاستفادة، على حد تعبير هانس رايشنباخ فيلسوف العلم الألماني (١٨٩١ - ١٩٥٣ م)، من الكتاب والسنة في مرحلة تجميع الأدلة (Context of Discovery) ولا في مرحلة التبرير (أو مرحلة إصدار الحكم) (Context of Justification) وواضح أنه يمكن الاستفادة في مرحلة الكشف من أي مصدر آخر وليس الكتاب والسنة فحسب، إلا أن هذه الاستفادة من الكتاب والسنة لا تجعل العلم دينياً. وما يجعل علماً ما دينياً أو عقلياً أو تجريبياً أو تاريخياً، هو مرحلة تبريره أو إصدار الحكم فيه.

ثالثاً: إذا كان إنتاج نسخ إسلامية لجميع العلوم ممكناً بالرجوع إلى الكتاب والسنة، فبم تنفع الطاقات الذهنية التي وضعها الله أو الطبيعة بين أيدي البشر؟ وبشكل خاص كيف يمكن تفسير توصية ودعوة الكتاب والسنة إلى التفكير والتعقل؟

رابعاً: إن القيام بإنتاج نسخ إسلامية من العلوم المتوفرة هو بحد ذاته دليل على أن من قاموا بهذه العملية غير راضين عن جميع الآراء المقدمة في هذه العلوم أو بعضها؛ ولذا فمن المتوقع أن لا تنسجم جميع أو بعض الآراء التي ستظهر في هذه النسخ الإسلامية مع الآراء والنظريات المطروحة رهنأ. وفي هذه الحالة ماذا نفعل وأياً منها نتقبل؟ و يصبح هذا السؤال أكثر خطورة وأهمية عندما لا نكون في موقع فيلسوف علم ذرائعي (Instrumentalist) وعرفي (Conventionalist) ونفعي (Pragmatist) وعلمي (Operationalist) أو على حد تعبير جون ديوي (John Dewey)، تجريبي (Experimentalist)، بل أن نكون مؤمنين بأن صدق الآراء والنظريات أو كذبها، أمر لا يمكن التغاضي عنه. وبطبيعة الحال، سوف يقال: إنه ينبغي تأييد النسخة الإسلامية خلال تضارب الآراء؛ ذلك أن معطيات الوحي حقائق مطلقة وخالدة، بينما المعطيات العقلية والتجريبية والتاريخية هي حقائق غير جزمية وتخضع لظرف الزمان، ويجب أن تقيّم بمعيار معطيات الوحي. لكن لا بد من الانتباه إلى أن القول بأن «معطيات الوحي حقائق مطلقة وخالدة» وجميع فرضيات هذا المبدأ - بحسب القاعدة - من الاستنتاجات العقلية. وبناء على هذا، فهي حقائق غير مطلقة وخاضعة لعامل الزمن، وإذا أمكن التغاضي عن الاستنتاجات العقلية في

جميع الحالات أو بعضها، فلماذا لا نعتبر كلام العقل حين يقول: «إن معطيات الوحي حقائق مطلقة وخالدة»، كحكم الحاكم المعزول.

أسلمة المناهج الدراسية:

لن أتحدث عن المقومات الأربعة الأخرى للجامعة الإسلامية وسوف أكتفي في مجال الكتب والمقررات الدراسية (العنصر الثالث) بالإشارة إلى أن بعض مؤيدي أسلمة الجامعات والعلوم، أقدموا في السنوات العشرين الأخيرة في جميع أرجاء العالم على تأليف كتب دراسية دونوا فيها العلوم المؤسمة. وبطبيعة الحال، مع مراعاة المعايير والأصول التي تجب مراعاتها في إعداد الكتب الدراسية. وتُظهر النظرة الفاحصة لمثل هذه الكتب أن المقصود الأول من أسلمة العلوم في أغلبها هو بيان موقف الإسلام في مجال القيم ليس أكثر.

أسلمة الجامعات الإمكان قبل الضرورة:

سوف نبحث في هذا القسم من المقالة حول التساؤل عن إمكانية أسلمة الجامعة، تقدم قبل قليل أن أهم مقومات الجامعة هو الهدف المنشود من إنشائها والعلوم التي تدرّس فيها، والكتب الدراسية، والأساتذة، والطلبة، ونظام الإدارة، والتنفيذ. وبطبيعة الحال، فإن الجامعة الإسلامية هي الجامعة التي تكون جميع مقوماتها الستة هذه قد تبلورت وفق معايير الدين الإسلامي. وهنا تظهر قضايا نظرية ومشاكل عملية يعتبر حلها شرطاً ضرورياً لإمكانية تحقيق وجود الجامعة الإسلامية، ولما كان حل تلك المعضلات صعباً جداً إن لم نقل مستحيلاً، فإن أسلمة الجامعة أيضاً مستحيل عملياً أو صعب جداً على الأقل.

ولأجل تحديد نطاق المقومات الستة للجامعة الإسلامية وفقاً لأحكام الدين الإسلامي وتعاليمه، لا بد لنا من الرجوع إلى الكتاب والسنة واستنطاقهما - كما يقول الإمام علي بن أبي طالب (ع) - إلا أن الكتاب والسنة لحسن الحظ أو لسوءه، يردان بأجوبة مختلفة على السؤال الواحد تبعاً للمستنطق والسائل؛ ولهذا تظهر عن الإسلام روايات وقراءات مختلفة. ورغم أن هذه القراءات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجاميع أساسية: أصولية وتجديدية وتقليدية^(٨)، إلا أنها في الحقيقة أكثر بكثير مما يمكن معه استقراؤها بشكل كامل بسهولة. وهنا يبرز هذا السؤال: إلى أصحاب أي رواية وقراءة إسلامية نرجع في سبيل تحديد هوية الجامعة الإسلامية؟

ويمكن أن يقال في الجواب عن هذا التساؤل: نحدد القراءة الصحيحة بالرجوع إلى الكتاب والسنة. ولكن يجدر الانتباه إلى أن الرجوع إلى الكتاب والسنة هو الذي أنتج القراءات المختلفة، والشيء الباعث على الاختلاف لا يمكن أن يكون مزيلاً له. ويمكن أن يقال: نلجأ إلى المبادئ الأساسية المتفق عليها بين المسلمين جميعاً. غير أنه وبغض النظر عن الآراء والنقاشات التي يمكن أن توجد حول مفاهيمها ومصاديقها، فإنها ليست بالقدر والكيفية التي يمكن معهما استكشاف واستخراج هوية الجامعة الإسلامية منها.

ومن الممكن أن يقال: يشكل جميع الزعماء الفكريين والروحانيين للمسلمين مجلساً ويحددوا فيه رأي الإسلام في كل قضية ومعضلة، ويرتضي مسلمو العالم ما يقره هذا المجلس في القضايا التي يعرض لها، ومنها ما يتعلق بهوية الجامعة الإسلامية.

وهنا أيضاً ينبغي القول: إن تشكيل مجلس كهذا في العالم الإسلامي يمكن أن يكون بحد ذاته مصدر فوائد عديدة، وأقل منافعه هو جمع الزعماء الفكريين والروحانيين للمسلمين تحت مظلة واحدة، ويؤدي بهم إلى النقاش وتوحيد الجهود. ثم إنه يلغي إمكانية بروز هذه الظاهرة القبيحة والمشؤومة والتي يظهر فيها بين أونة وأخرى من إحدى الزوايا من يتهم - بسبب معلوماته الناقصة وعقله القاصر - غيره بالكفر والزندقة والبدعة، ويعد نفسه ميزاناً للتمييز بين الحق والباطل والإسلامي وغير الإسلامي.

لكن - وفي الوقت نفسه - وفي عالم المسيحية الكاثوليكية أيضاً التي شكّلت على مدى السنوات الألف وستمئة وخمس وسبعين الماضية واحداً وعشرين مجعاً كنسياً عالمياً، لم يُحقّق حتى الآن وفاق بشأن ما هو المسيحي من الآراء وما هو غير المسيحي منها، والحد الفاصل بين الإيمان وبين الكفر والبدعة والفسق. وما يزال باب البحث والدراسة والنقاش والرفض والقبول مفتوحاً. ولا يتصور وجود فرق شاسع بين الوضع الفكري والثقافي للعالم المسيحي، وبين الوضع الفكري والثقافي للعالم الإسلامي ليقول قائل: إن قياس الإسلام بالمسيحية هو قياس مع الفارق، ومن المحتمل كثيراً أنه يمكن حل جميع الاختلافات في وجهات النظر، وذلك عن طريق تأسيس مجمع إسلامي عالمي.

ولنفترض أن قد سوّيت الاختلافات في وجهات النظر جميعها وحددت هوية الجامعة الإسلامية أيضاً بشكل دقيق وواضح، فإن هنا سؤالاً يبقى قائماً، وهو: لماذا ينبغي لليافعين والشباب من البلدان الإسلامية دخول هذه الجامعة بالتحديد دون غيرها والالتزام بمقررات نظامها التعليمي وقواعدها التربوية؟ ألا أنهم مسلمون؛ أي ولدوا في بلدان إسلامية، أو لأب وأم مسلمين؟ أم بسبب كون الجامعة الإسلامية تتمتع بمصداقية أكبر

ومستوى علمي أعلى؟ فإن كان الأمر الأول هو المبرر، عندها يكون بإمكان المتعلم المسلم أن يقول: ما دمت لم أخير في اختيار أبي وأمي ومسقط رأسي وتاريخ ميلادي، أتحرمونني أيضاً من حق اختيار جامعتي وأسلوب تعليمي وتربيتي؟ لماذا ينبغي أن يؤدي جبر واحد إلى عمليات جبر أخرى؟ وإن كان المبرر هو الأمر الثاني، فيبقى على عاتق أصحاب نظرية أسلمة الجامعة أن يثبتوا مصداقيتها ورفعته مستواها العلمي بالقياس إلى سائر الجامعات.

وبطبيعة الحال، فإنه يمكن - كما يقول برتراند راسل - توجيه المتعلمين المسلمين نحو القبول بالتعليم والتربية الإسلامية عن طريق استخدام وسائل الضغط والتحفيز أي العقاب والثواب، ولكن هذه الوسائل لا تدوم كما ولا تجدي نفعاً على المدى الطويل؛ ذلك أن بركات وفوائد التعليم والتربية الدينين إنما تتحقق عندما يكون الشخص قد استسلم لها بمحض إرادته. وهذه المشكلة إنما تتجلى بكامل أبعادها وبوضوح حينما نعيش في عصر الحداثة أو على الأقل في حالة سيادة الحداثة. وهذا الأمر يهدينا إلى القضية التالية:

«ينبغي أن يعلم أن معالجتنا لهذا الموضوع يجب أن تتم من خلال رؤية نقدية غير دينية، وتحليل لا يركن إلى الحقائق بوصفها أموراً معقولة أو قابلة للدفاع عنها ما لم تجرٍ مقاربتها بمعايير العقل البشري. وبعبارة أخرى فإن وجود مصدر آخر للمعرفة غير العقل البشري - أمر مرفوض بحزم. وهذا المبدأ الديكارتي يهيمن على جميع المعطيات التي تُعدّ علماء. وعلى هذا، فمن الضروري أن ننسّق المفاهيم الدينية، ونثبت كونها عملية في تحليل شخصية الإنسان والمجتمع البشري وجميع العلوم التي يحصل الإنسان بمعاونتها على المعارف»^(٩).

وهذه المواجهة للنظرة الناقدة، والتحليلية التي هي نظرة إنسان عصري عمل كبير وشاق، وإن الدفاع عن تأسيس جامعة إسلامية ورد هذا الأسلوب من التفكير بروح علمية تحد على أصحاب نظرية أسلمة الجامعات أن يقبلوه، وهو يفرض عليهم الدخول في نقاش جاد وحرٍّ وصريح مع الباحثين والمفكرين الدينين من غير المسلمين، وكذلك مع الباحثين والمفكرين اللادينين والمعادين للدين.

وبهذه البحوث ومن خلال هذه النقاشات فحسب، يدرك الباحثون والمفكرون المسلمون «إلى أي حدّ تكون آراؤهم ونظرياتهم مقبولة - عقلاً ومنطقاً - لدى غير المسلمين وحتى لدى غير المتدينين، وما تزال دراساتهم وبحوثهم حتى الآن ناقصة وضعيفة، وتتوقف على مقدمات ووسائل نقدية حديثة وأكثر تأثيراً، ونحن في عصر لا مجال فيه للتراجع والانكفاء على الذات والفرار من تحمل المسؤولية»^(١٠). وكل هذا يعني أن يحمل المطالبون بالجامعة

الإسلامية العلوم والدراسات الجامعية ومراكز البحوث العصرية وغير الدينية وذات التفكير الحر على محمل الجد. وهنا تتعرض فكرة تأسيس جامعة إسلامية إلى نوع من التناقض (Paradoxicality)، ذلك أنه يتعين وجود جامعات غير إسلامية قوية وفاعلة من أجل إنشاء جامعة إسلامية وفاعلة.

أسلمة الجامعة ضرورة؟

هل هناك من ضرورة لأسلمة الجامعة؟ لا شك في أن جامعات العالم وأنظمتها التربوية والتعليمية تعاني من عدد من العيوب والنقائص. ويكفي أن نطالع بدقة الآثار المثيرة للأسى والعميقة والمحبة للإنسانية لأمثال إيفان إيليتش (Ivan Illich) أو ثيودور روزاك (Theodore Roszak) لندرك أي نوع من البشر خرّجت الجامعات وأنظمة التربية والتعليم العصرية، بشر أبرز معالم شخصيته انعدام الهدف، ينحصر كل اهتمامه في تكييف نفسه مع كل مشكلة اقتصادية وتكنولوجية جديدة تعترضه، ويستخدم كل ما تعلمه وسيلة يوفر بمعونتها حاجاته الملحة والضرورية. والتعليم والتربية لدينا اليوم ليسا سوى فن قتال وفن انتصار في ظل الظروف العصيبة والعدائية المحيطة بنا، وبهذا الفن ننتزع نصيبنا من فم العالم المحيط بنا ونحافظ عليه بكل ما أوتينا من قوة. ولا يوجد هدف سام يتعدى تلبية الحاجات الضرورية والعابرة.

يكتب جاك مارتين (Jacques Martin) في مقطوعة مفعمة بالحنن والأسى: «إنني أحب شبان عصري وأجلهم، وكلما فكرت في أوضاعهم وظروفهم، تملّكني شعور غريب بالاضطراب والقلق... وبشكل عام، فإن مستواهم الأخلاقي لا يقل عن المستوى الأخلاقي للجيل السابق رغم أنهم أكثر تساهلاً بشكل علني، لديهم صدق وصراحة تبعث على الاطمئنان وتفتح القلب، ذلك أنهم جيدون جداً، وأسخياء، ومتسامحون، وبعيدو النظر، ومتحررون وبسطاء، ويظهرون في أعمالهم النبيلة - وحتى غير الأخلاقية - نوعاً من الطهر والنقاء يشبه براءة الطيور والظباء. وفي الحقيقة، فإنهم تماماً في مرحلة زالت فيها التراكيب المكتسبة من التقاليد الأخلاقية والدينية، بينما لا يزال البشر منهمكين في العبث بتراثهم... شبان عصرنا يقفون على قمة الخواء في الوقت نفسه الذي هم فيه طيبون»^(١١).

كل هذا صحيح، ولكن هل تجعل هذه العيوب وهاتيك النقائص تأسيس جامعة إسلامية أمراً ضرورياً؟ نعم، لكن شرط إثبات ثلاثة أمور أخرى:

الأول: أن لا تتكرر هذه العيوب في نظام التربية والتعليم الإسلامي.

الثاني: أن لا تكون في التعليم والتربية الإسلاميين عيوب ونواقص أكبر من عيوب ونواقص التربية المعمول بها حالياً.

الثالث: أن يكون انعدام العيوب والنواقص مقتصرًا على التعليم والتربية الإسلاميين، ولا يشترك فيه تعليم وتربية مسيحيين أو بوذيين.

خصائص إيجابية في أسلمة الجامعة

ما قيل حتى الآن غلب عليه الطابع النقدي. ولا بد من أن يتوقع القراء المحترمون سماع كلام إيجابي، ولتلبية هذا الطلب يقدم الكاتب عدداً من آرائه الإيجابية بصراحة واختصار:

١- أسلمة العلوم والمعارف التوصيفية البشرية ليست أمراً ممكناً ولا مطلوباً. وإن العلوم التوصيفية للإنسان المعاصر ليس فيها عيب بحد ذاتها لنفتش عن شيء آخر محلها، وكل العيوب تتركز في النزعة العلموية (Scientism) وتحويل العلم إلى إله، وأقصد بتأليه العلم هو النظر إليه برؤية معرفية تدعي أن العلم التجريبي هو المنهج الوحيد لاكتساب المعرفة. أو أنه المنهج الوحيد الذي لدينا، ويمكن اعتباره مصدراً موثقاً للمعرفة. وتأليه العلم هذا هو نظرية في المعرفة انتهت إلى اعتبار الوجود مادياً؛ أي بمعنى أن الواقع المادي هو الواقع العيني المقبول والقائم بذاته، وتأليه العلم هو علم المعرفة الذي هدم بضربة واحدة عمارة الوجود المتعددة الطبقات، ولم يبق إلا على طابقتها الأرضي؛ أي عالم الطبيعة. وإن الواجب الملقى على عواتقنا هو أن نظهر لطلابنا في جامعاتنا:

أولاً: إن تأليه العلم هو نظرية معرفة لا يمكن الدفاع عنها منطقياً.

ثانياً: إن العبور من نظرية تأليه العلم إلى نظرية مادية الوجود، هو عبور سيكولوجي وليس منطقياً.

ثالثاً: إن نظرية مادية الوجود ليست قابلة للتبرير المنطقي.

٢- فضلاً عن ذلك ينبغي أن نظهر للطلاب أن العلم نشاط إنساني، وخلافاً لما يتصور الحداثيون، فإنه ليس نشاطاً محايداً قائماً على العقل المجرد فحسب؛ بحيث ينتج قوانينه على ضوء معطيات استقرائية خاصة، ويقيم من تلك الاستقرائات نظريات أو فرضيات ليخضعها لاختبارات موضوعية تجريبية، وقد انتبه لهذا الأمر الخطير^(١٢) مؤرخو العلم من أمثال تشارلز غيلسبي^(١٣) (Charles Gillispie) وجون سي. غرين^(١٤) (John C. Greene) وتوماس كون^(١٥) (Thomas Kuhn) والباحث في لغة العلم ستيفن تولمين^(١٦) (Stephen Toulmin) وفلاسفة علم أمثال مايكل بولاني (Michael Polanyi) وبرنارد

لورنغان^(١٧) (Bernard Lonergan) وفلاسفة ولاهوتيون مثل كارل رانر^(١٨) (Carl Rahner) وبول تيليش (Paul Tillich)^(١٩) وإن العلماء يردون ميدان العلم بكامل قواهم وليس بعقولهم وقدرتهم على الاستدلال فحسب. وهذه مسألة إذا أدركت جيداً قلّت هيمنة العلم على أذهاننا وقلوبنا، وانعتقنا من عبادة العلم بوصفه المرجع الموثوق الوحيد في ما يتعلق بالحقيقة والمعرفة.

٣- كثيرة هي الأمور التي تقع خارج نطاق دائرة البحث العلمي؛ أي لا يمتلك العلم سوى السكوت حيالها. وعلى الأقل، فإن القيم والأهداف، هي خارج حدود العلم كما يقول هيوستن سميث^(٢٠) (Huston Smith) وكان فيتغنشتاين (Wittgenstein) يعترف، حتى في الفترة التي كانت فيها للمركزات العلمية مكانة سامية في فلسفته، بأن هذه المركزات تترك «القضايا الحيوية... دائماً على حالها»^(٢١).

٤- فضلاً عن ذلك يجب إفهام الطلبة أن العقل الاستدلالي ليس منبذاً على الإطلاق، لكن شرط أن لا يتخلى عن نظرتة الشاملة قيد أنملة. ومشكلة الإنسان المعاصر لا تكمن في كونه تابعاً للعقل الاستدلالي، بل في كونه لا يتبعه في جميع الحالات ويتعامل معه تعاملًا مزدوجاً؛ أي أنه بمجرد أن يستعصي عليه بيان حقيقة ما ضمن إطاره العقلي، ينكر تلك الحقيقة أو يتغافل عنها بدلاً من أن يدرك العيب والنقص داخل ذلك الإطار.

٥- كما ينبغي أن يعلم الطلاب أنه إذا كان علماء اللاهوت والدين لا يملكون دفاعاً عقلياً في بعض الأحيان، أو يعجزون عن إقامة دليل عقلي لإثبات بعض معطيات الإيمان الديني، فإن فلاسفة العلم مبتلون أيضاً بالعجز نفسه والحيرة والاضطراب وعدم الانسجام في الفهم الدقيق لما يجري في معطيات الكشوف والبحوث العلمية. لا يحصل أي منا على نتيجة لصعوبة التبيان الوافي والدقيق لتراكيب العلم النظرية، وعليه، فإن العلم إما أن يكون غير معقول وغير منطقي أو عقيماً وبلا جدوى. فلماذا نعتبر نتيجة كهذه بحق الدين مبررة؟^(٢٢).

٦- نحن بحاجة ماسة اليوم إلى جامعة معنوية، جامعة يعتبر طلابها عالم الوجود أوسع بكثير من عالم الطبيعة، ولا يرون وجودهم مقتصرًا على الجسد، ويؤمنون بهدف ومعنى لعالم الوجود وحياتهم، هدف ومعنى يستطيعان تنظيم وتوحيد كل ما يفعلونه ويرونه في هذه الحياة، ويرون القيم الأخلاقية واقعاً ملموساً، يعتبرون أنفسهم فقط المسؤولين عما يحلّ بهم، ولا تخلو قلوبهم من الطمأنينة والبهجة والأمل.

الهوامش:

(١) للاطلاع على آراء بعض المفكرين من العالم المسيحي الذين طرحوا نظريات في مجال جعل التربية والتعليم دينيين، أنظر:

Smith, Huston, *The Purposes of Higher Education* (New York: Harper and Brothers, 1955).

Whitehead, Alfred North, *The Aims of Education and Other Essays*.

Clarke, Sir Fred, *Freedom in the Educative Society* (London, 1948).

Jeffreys, M.V.C, *The Aims of Education* (London, 1972).

Niblett, W.R0 *christian Education in a Secular Society* (London, 1966).

Niblett, W.R. (ed), *The Sciences, The Humanities, and the Technologic Threat* (London, 1975).

Maritain Jacques, *Education at the Crossroads* (New Haven, 1944).

Dr SYED Sajjad Husain and Dr Syed ALI Ashraf, *Crisis in Muslim Education*.

Dr Syed Ali Ashraf (ed), *Muslim Education in the Modern World : a Survey*.

Professor Syed Muhammad al- Naquib al- Attas (ed) *Aims and Objectives of islamic education*.

Professor Muhammad Hamid al -Afendi and Professor Nabi Ahmed Baloch (ed), *Curriculum and Teacher Education*.

Professor Isma'il Ragi al -Farqui and Dr Abdullah Omar Nasseef (ed), *Social and Natural Sciences*.

Dr Wasiullah Khan (ed), *Education and Society in the Muslim World*.

Dr SEYYED Hossein Nasr (ed), *Philosophy, Literature and Fine Arts*.

(٢) يمكن الاطلاع على جزء من الأنشطة الفكرية لهؤلاء المفكرين الإسلاميين في الأثار التالية:

(نشرت هذه الأثار بأسرها ضمن مجموعة Islamic Education Series. بإشراف الدكتور السيد علي أشرف، وجامعة عبد العزيز ودار نشر هودر أند ستوتون . (Hodder and Stoughton)

H H.H. Bilgrami and S.A. Ashraf, *The Concept of an Islamic University*.

S.A. Ashraf, *New Horizons in Muslim Education*.

(طبع هذان الأثران ضمن مجموعة " Islamic Monograph Series".

بإشراف الدكتور السيد علي أشرف ودار نشر هودر أند ستوتون).

Seyyed Hossein Nasr, *Knowledge and the Sacred* (Albany, N.Y. 1989).

Seyyed Hossein Nasr, *The Need for a Sacred Science* (SUNY 1993).

(٤) هناك من يرى أن أصول الفقه بأسرها من العلوم الإسلامية. ووضع البعض أيضاً قراءة القرآن وحفظه وسيرة الصحابة والتابعين (التي تشمل تاريخ صدر الإسلام)، واللغة العربية (المقدار الذي يتعلق

بالقرآن على الأقل) في عداد العلوم الإسلامية. ولا يتمتع أي من هذه الآراء بالدقة والصحة.

(٥) منذ عصر ابن خلدون - وأتباعاً له من بعده - فقد سُمى المسلمون العلوم التي دُعيت في هذه المقالة بالاسلامية، بـ «العلوم النقلية»، والعلوم التي دُعيت بغير الإسلامية بـ «العلوم العقلية». وواضح أن لبعض

العلوم العقلية - بهذا المعنى - منهج عقلي (مثل الرياضيات والمنطق والفلسفة)، ولبعضها منهج تجريبي، ولبعضها الآخر منهج تاريخي. وعلى هذا فـ «المنهج العقلي» له معنيان: الأول المعنى الأعم الذي كان ابن خلدون يعنيه، والثاني: المعنى الأخص وهو الأكثر تداولاً الآن. ولكي يوضح كاتب هذه المقالة أن ما يقصده هو المعنى الثاني فقد أضاف في متن المقالة جملة «بالمعنى الأخص» بين هلالين صغيرين.

(٦) كنموذج على ذلك أنظر: Nature, CLXXIII, 4397, Feb 6, 1954, 227 التي سَوَّغَ فيها كاتب المقالة السير جيمس غراي (Sir James Gray) الأستاذ بجامعة كمبريدج بقاء نظرية التطور الداروينية في نطاق علم الأحياء على رغم نواقصها الواضحة بالشكل التالي: «يعتقد أغلب علماء الأحياء أن التفكير استناداً إلى وقائع غير محتملة الحدوث أفضل من أن لا تفكر إطلاقاً»، وانظر أيضاً:

Dennett, D.C., "Why the Law of Effect Will not Go Away?" in Journal of the Theory of Social Behaviour V,2 (1976),

التي اعتبر فيها كاتب المقالة «سراً البقاء» الذي هو من إبداعات إدوارد لي ثورندايك (Edward Lee Thorndike) عالم النفس الأميركي والمتخصص في مجال التربية والتعليم (١٨٧٤-١٩٤٩م)، ومضمونه أن الأفعال التي يُكافأ عليها، ستنكرر، إن هذا القانون من وجهة نظر علماء النفس السلوكيين رغم أنه لا يخلو من نقص، إلا أنه لا بديل له (نقلاً عن:

Smith Huston, Forgotten Truth Harper and Row, 1967, PP. 6-134. و

(٧) أورد كاتب هذه المقالة بعض العقبات التي تعترض طريق منهجية فقهاء التقليدي في موضع آخر. أنظر: مجلة نقد ونظر، السنة الثالثة، العدد الرابع، خريف ٦٧٣١ ش، عدد خاص بفلسفة الفقه، فصل «اقتراح بشأن فلسفة الفقه».

(٨) للاطلاع على أوجه الشبه والاختلاف بين هذه القراءات الثلاث الأساسية عن الإسلام، أنظر مقالة الكاتب المعنونة: «حديث عن العلاقة بين الإسلام والليبرالية» في مجلة كيان، السنة التاسعة، مرداد وشهريور، ١٣٧٨ ش (آب، أيلول، ١٩٩٩م)، الصفحات ١٢-١٣.

(٩) H.H. Bilgrami and S.A. Ashraf, op. Cit, p. 49.

(١٠) ibid, p, 50.

(١١) Maritain, Jacques, Education at the Crossroads, New Haven:Yale UNIVERSITY- (١١) TY Press, 1944, p.86

See: GILKEY, Langdon, Religion and The Scientific Future (MUP/ROSE, (١٢) 1981).

Gillsipie, Charles C., Genesis and Geology New York, Harper Torch books (١٣) 1959).

Iowa State University Press, Ames)Greene, Jhon C., The Death of Adam (١٤) 1959.

Kuhn, Thomas, The Structure of Scientific Revolutions (Chicago University of (١٥) Chicago Press, 1962).

Toulmin, Stephen, Foresight and Understanding (New York, Harper Torch- (١٦) books, 1961).

Polanyi, Michael, Personal Knowledge (New York, Harper Torchbooks, 1964) (١٧) The Tacit Dimension (Garden City, N.Y. Doubleday Anchor, 1966, and Science, Faith and Society (Chicago University of Chicago Press, 1964).

Rahner, Karl, Spirit in the World, tr. William Dych (New York, Herder and Herder 1968) (١٨)

Tillich, Paul, My Search for Absolutes (New York, Simon and Schuster 1967) (١٩)

See: Smith, Huston, Beyond The Post Modern THOUGHT, (Illinois :Quest (٢٠) Books, 1996), pp. 84-90; and his Forgotten Truth, (New York, Harper and Row, 1967), pp. 1 - 29.

(٢١) مجلة كزاره، العدد ٥٢، من رسالته المنطقية - الفلسفية .

Shapere, Dudley, Philosophical Problems of Natural Science (New York, The Macmillan Company, 1967), pp. 1 - 29. (٢٢)

الذي يبين فيه الكاتب بأسلوب معبر وواضح المدى الواسع لحالات عدم التوافق وحتى حيرة فلاسفة العلم وتخيبتهم في موضوع الهيكل الأساسي للعلم. ويبدو أن ماهية المنهج العلمي نفسه وأمر ألفاظ المفاهيم النظرية الموجودة في العلم. (Theoretical terms) وتفاصيل تجارب الفرضيات والنظريات العلمية، والوضع اللغوي أو الفلسفي لنظرية أو قانون علمي، هي بأسرها من الأسرار في عرف فلاسفة العلم.